نظرات في النفس والحياة

-٣٣-

نظرات ثاكري

وليام مكيبس ثاكري القصصي الانجليزي الشهير . قد اتهمه بعض النقاد بسوء الظن بالنفس الانسانية . والنفوس إذا وصف كاتب سيئاتها اتهمته بسوء الظن والعداء لأن هذا الاتهام أسهل من التخلص من سيئاتها التي سببها الغرائز والشهوات المتمكنة من النفوس . وقد رأى بعض المفكرين ان هذه الغرائز والشهوات لن تتغير ولن تتبدل وان النفس إذا استطاعت أن تتخلص منها أو تلطف من حدتها أصابها الضرر والعجز . ومع ذلك فان المفكرين من قديم الزمن يصفون عيوب النفس البشرية أملاً أن تتخلص منها أو تلطف من حدتها . ولا أذكر أكان مينكين الامريكي هو الذي وصف الانسان فسماه القرد الأبدي لعجزه عن التخلص من الحماقة والشهوات وحب التدمير والأذى، ولقصوره عن الأخذ بأسباب تعميم نتاج العلم وتعميم الاستفادة منه . ولولا أن الكاتب يؤمن في صميم نفسه أن الانسان وهب القدرة على تلطيف عيوبه وتهذيبها والتخلص منها كلها أو بعضها ما كلف نفسه مؤونة وصفها . وبالرغم من أن ثاكري قد يؤلم بمبضعه في شرح صفات النفوس كما يؤلم مبضع الطبيب اذا فصد الدمل فانه كثير الحنان والعطف على النفوس ، فهو يجمع بين السخر والحنان وهو بين الانجليز من هذه الناحية مثل أناتول فرانس بين القصصيين الفرنسيين . وكما اشتد ثاكري في نقد سخر سويفت في كتابه المسمى (كتاب الفكاهة) اشتد بعض الكتاب في مؤاخذة ثاكري . ولكن شتان بين سويفت وثاكري فليس في سويفت حنان ورقة وعطف كما في ثاكري فان سخر ثاكري مقرون الى رقة وسماح وصفح جليل ، ولو أنه قد يشتد في بعض قصصه ورسائله ويعنف . وبعض قصصه لا نرى فيها ما يسمى في اصطلاح المؤلفين أبطالاً . ولا يغيب عنا أن ثاكري وزميله ديكنز من كتاب العصر الفيكتوري أي عصر الملكة فكتوريا وهو عصر مشهور بمظاهر

الزمت والكبر في الزمت. ولكن ثاكري لا يعني ذلك العصر من سخره ولا يعني ما فيه من نفاق وتجبر وقسوة. كما لم يُعفِ المختالين والمفاسرين والأفاقين الذين خرجوا على سنة العصر الفكتوري. وبعض النقاد يرون أن قصة (سوق الغرور) هي أعظم قصصه. وقد تكون كذلك من الناحية القصصية الفنية. ولكن عندي ان اعظم قصصه هي قصة (هنري يزموند) التاريخية. وقد فضلها الناقد الكبير الأستاذ سينتسبري فإن لها سحراً عجيباً. والفن الذي يقتضيه وصف ياتركي وأسها من غير زلل فنٌّ من أعجب الفنون. ثم ان عظم موضوع القصة اذا أضيف الى عظم الفن يزيد في قدر القصة، ولو إن إجادة صاحب الفن لا تقتضي موضوعاً كبيراً كي يجيد. ومن قصصه الأخرى قصة (باري لندُن) و (الفرجينيين) الخ الخ. ومن كتبه كتاب (الرسائل الدائرة) وهي أشبه بما يتخلل قصصه من رسائل قصيرة وكلمات في وصف الناس وكتاب (الادعياء) الخ الخ.

وفيما يلي بعض نظراته مع الشرح والتعقيب: —

(١) كثيراً ما ينتقص النساء من عقل المرأة وذكائها (أو من أخلاقها) اذا كانت أعظم منهن جمالاً وأتم حسناً ولم يستطعن انتقاص حسنها كأنما يردن بانتقاص عقلها ان لا يرجحهن بمجموع ما وُهِبَتْ من ذكاء وجمال. وهذا عكس ما يفعله الرجال فان ذات الوجه الجميل والعينين الفاتنتين تغتفر لها حماقة كثيرة، وقلة عقلها تكتسب فيهما رشاقة وحلاوة تغطيان على قلة عقلها — والواقع أن الانسان كثيراً ما يخدعه انتظام التقاطيع فيَحْسَبُ انه مقرون دائماً الى انتظام العقل والعكس بالعكس

(٢) في سوق الغرور التي هي الحياة قلما يتألم الانسان من وخز ضميره اذا عمل شراً. وانما هو يتألم لا من الندم على عمل الشر بل من الندم لانفضاح أمره وانكشاف سره وشره فيخلط ضميرهُ عمداً بين نوعي الندم كي يظهر بمظهر الأبرار، أوكي يقال أنه كفَّر بالندم ووخز الضمير عما ارتكب من الشر. وقد يكون الرجل نفسه مخدوعاً بما يخدع به غيره، فان الشعور يُلَبِّسُ على صاحبه حقيقته فيخال من تأنيب الضمير وهو من ألم الأثَرَة وحب الذات.

(٣) لو فطِنَّا الى ما قد يخالط أنبل الأخلاق وأسماها من نقص او دناءة لتركنا

التفاخر والتباهي بالفضائل ووصف النفوس بالعطف والرحمة.

(٤) ان الكذب الذي يقوله المرء في اغتياب الناس أكثر ذيوعاً من الصدق الذي يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أن قلوب الناس تربة حجرية لا تنمو فيها بذور زهور الخير الرقيقة. ومما لا شك فيه أن اغتياب الناس وذمهم يصادفان من الانشراح والاقبال والائتناس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير، كأنهما في الحالة الأولى تطعمهم بتوابل تدعو النفس الى أكل لحومهم.

(٥) أيُّ الصفات نالت أعظم مديح منذ عهد حرب طروادة الى اليوم؟ أليست هي الشجاعة والجرأة والاقدام؟ فقد غالى في الاشادة بها الشعراء والكتاب وأغفلوا الصفات الفاضلة الأخرى، ولم يعيروها اهتماماً كاهتمامهم بهذه الصفات. ألا يجوز أن يكون السبب أن الانسان جبان بطبعه يجنح الى الخوف والتروع أكثر من جنوحه الى قلة المبالاة والاقدام صيانة للحياة واعتزازاً بها، فيغطي على ذلك بمدح الشجاعة كي يقال انها صفته الغالبة ويطري الشجعان كي يقال عنه انه منهم. ولعل من أسباب مدحه الشجاعة أيضاً انه يريد أن يحمل نفسه عليها، ويغطي عنها مخاوفها، كما غطاها عن الناس.

(٦) بعض النساء لهنّ ولع بان يضعن من يحببن في مكانة العبادة وهي مكانة تشبه مكانة آلهة الوثنيين في المعبد فتقدم له البخور والمدح والثناء سواء أكان ذلك عن عقيدة فيه أو حيلة، وهذا يضايق الرجل لانه يلزمه صفات الكمال دائماً وهو لا يستطيعها. فيمل كما يمل (الدالاي لاما) في التبت ويتثاءب من عبادة عباده

(٧) قلما يهم الناس كبر عقل الرجل أو عظم فضائله قدر ما تهمهم آدابه المريحة في معاشرتهم اياه وسلوكه في ارضائهم لان كل انسان يأنس الى ما يريحه. واما رجاحة تفكير المعاشر وعظم فضائله فكثيراً ما تضايق عشيره. ولذلك كثيراً ما يحكم الناس على عقل الرجل وفضائله بما يريحهم او بما لا يريحهم في سلوكه معهم — أو حتى بما يتخيلون انه يريحهم أو لا يريحهم.

(٨) ان بعض الناس لا ينالون الاطمئنان في الحياة حتى يغالطوا أنفسهم ويخادعوها ويحملوها على أن تعتقد ان العدل يطرد في الحياة ويعم — فهل يطرد العدل في حياة الناس ؟؟ هل كل راكب فاضل وكل ماش مفضول ؟ وهل الأول عادل والثاني ظالم . وهل الفضل دائماً مُفضّل والنقص دائماً مؤخر ؟. وهل المرائي المنافق دائماً مخذول ؟. وهل ينصرف الناس عن التهافت على ما لا قيمة له من الكتب والأشياء والأمور ؟ وهل هم لا يقبلون على الخطيب المهرّج الماهر ؟؟ وهل لا يُرقى الرجل ولا يُقدَّم ولا ينجح إلا بما له من

عقل وفضل وهمة وكفاية ؟ وقس على ذلك أسئلة أخرى كثيرة . وخليق بالمرء أن يكون أشجع وأقوى من أن يعجز عن تحمل الحياة إلا بالأكاذيب .

(٩) قلما ينال الانسان خيراً إلا وهو يرى أنه يستحقه ويستحق أكثر منه. ومن أجل ذلك نشأت قلة الشكر وظهر غمط المعروف وجحد الجميل المصنوع إذ قلما تعد نعمة المتفضل تدفعاً منه، بل حقاً واجباً لمن نالها — : وفي بعض البيئات المنحطة لا يكتفي ناكل المعروف بغمطه وجحده. بل يتعاظم على من صنع المعروف أو يحقد عليه في سريرته كي يظهر له إنه انما أخذ بعض حقه وإنه أكبر وأعظم من أن يقر لاحد بفضل عليه .

(١٠) لو اختار بعض العلماء المؤرخين أن يتتبع جرائم الفضلاء، وان يكتب كتاباً في تاريخ الشر والشر الذين صنعهما أهل الفضيلة أو من يرون أنفسهم من أهل الفضيلة لكان كتاباً عجيباً ممتعاً واعظاً للناس ... فمن الذين أحرقوا البروتستانت ؟ انهم فضلاء الكاثوليك . ومن هم الذين أحرقوا الكاثوليك ؟ انهم فضلاء البروتستانت. ومن الذين يضطهدون الناس في الحياة الاجتماعية وينشرون عنهم أخبار السوء ويسقونهم بصفات السوء ويدعون الناس الى اضطهادهم وايذائهم ويجدون لذة في ذلك ؟ هم الذين يرون أنفسهم أو يريدون أن يقنعوا الناس انهم أفضل من غيرهم. ومن هي التي تقتبع جيرانها لاستخراج ما تعتقد من سيئاتهم، أو ما لا تعتقده، ولتستخرج سيئات أجدادهم الى الجد الرابع أو أكثر وأبعد من الجد الرابع لكي تؤذيهم بنشر السوء عنهم ؟ انها السيدة الفاضلة — أو التي تعتقد أو تريد أن يعتقد الناس أنها سيدة فاضلة . وهي اذا عثر الحظ السيء بانسان وجندله دامياً أمامها في الوحل رفعت أنفها إلى السماء تعاظماً وتعالياً وجمعت ثيابها كي لا يلوثها العاثر المسكين — وإن كان من المحال أن يلوثها وهرولت صارخة باشمئزاز من حظه العاثر الشيء مبتعدة عنه .... حقاً اننا في حاجة الى كتاب في تاريخ جرائم الفضلاء!

(١١) ان الاحسان طعام عسر في الهضم . ومن أجل ذلك قد يختلق من ناله مذمة للمتفضل إذا لم يجد فيه مذمة كي تكون عذراً له إذا فك عن نفسه ما يعده أغلالاً وأصفاداً للمعروف ... ترى هل كان المسافر الذي نجاه السامري من اللصوص — في قصة الكتاب المقدس — شاكراً لمن نجاه من اللصوص ؟ أم أنه كان يجد غضاضة في أن يكون مديناً لانسان بفضل عليه ؟ وهل هذه الغضاضة جعلته يتذكر أن كل سامري عقيدته فيها انحراف في نظره ؟ وهل اتخذ من انحراف عقيدة من نجاه عذراً له كي يجحد ما أداه اليه من معاونة وكي يتقحم عليه بالذم كي يفك عن نفسه أصفاد المعروف وأغلاله ؟

ع . ش